موقف البويهيين من الخلافة العباسية

كان من نتائج تسلط البويهيين واستبدادهم بالسلطة في العراق ضعف الخليفة حيث اصبح في هذا العصر ألعوبة في أيديهم ليس له من الأمر سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة، وفقد الامتيازات التي ورثها منذ قيام الدولة العباسية وحتى نهاية عصر نفوذ الأتراك، والتي تعتبر رمزا لسيادة الخلفاء العباسيين السياسية والدينية، فقد ساءت احوال الخلافة بدخول البويهين بغداد، ويعلق المؤرخ ابن الأثير على ذلك بقوله : «وأزداد أمر الخلافة ادبارا ولم يبق لهم من الامر شيء البتة وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشيء ، فلما كان ايام معز الدولة زال ذلك بحيث ان الخليفة لم يبق له وزير أنما كان له كاتب يدير اقطاعاته واخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد» .

ومما زاد في ضعف الخلافة أن البويهيين كانوا شأنهم شأن العلويين جميعا يعتقدون ان العباسيين مغتصبين للخلافة لذلك لم يكن لدي البويهيين باعث ديني على طاعتهم، إلا أنهم أبقوا على الخلافة العباسية على الرغم من وجود خلافة علوية في مصر آنذاك وهي الخلافة الفاطمية .

غير أن البويهيين قد وثقوا علاقتهم بالفاطميين، فتبودلت الكتب بين عضد الدولة بن بويه والخليفة العزيز بالله الفاطمي، وتضمنت اعتراف عضد الدولة بامامة العزيز كما عبر له عن ولائه وطاعته له .

ثم فكر معز الدولة فعلا في القضاء على الخلافة العباسية واعلان تبعيته للفاطميين في مصر، وأقامه خلافة علوية في بغداد، فشاور أصحابه فوافقوه على رأيه الا واحدا منهم حذره من سخط الناس ومخافتهم له وروى ابن كثير ان معز الدولة سأله عما دفعه إلى النصح فقال : «لأن هذا العباسي خليفة ترى أنت واصحابك انه غير صحيح الإمامة، حتى لو أمرت بقتله قتله اصحابك، ولو وليت رجلا من العلويين اعتقدت انت واصحابك ان ولايته صحيحة، فلو أمرت بقتله لم تطع بذلك، ولو أمر بقتلك لقتلك اصحابك» .

فعدل معز الدولة عن رأيه ، وفضل أن يستبد بالسلطة بجانب خليفة عباسي ضعيف على ان يكون تابعا لخليفة يعترف بأمامته كما أنه خشي أن هو أقدم على الغاء الخلافة العباسية أن يتعرض الى هجوم السامانيين والغزنويين حلفاء العباسيين من جهة، وتعريض العالم الاسلامي الى حروب اهلية من جهة أخرى .

وأستبد معز الدولة البويهي بالسلطة ولم يبق للخليفة المطيع من الأمر شيئ ، غير ما أقتطعه له الأمير البويهي ، وكان قد خصص للمطيع الفي درهم كل يوم لنفقته ويتضح ذلك من خلال كتاب المطيع الى عز الدولة بختيار سنة 361 هـ حين طلب الأمير البويهي من الخليفة امداده بالاموال مساهمة بالجهاد ضد الروم فرد عليه : « الغزو يلزمني اذا كانت الدنيا في يدي وإلي تدبير الأموال والرجال. واما الآن وليس لي منها الا القوت القاصر عن كفائي وهي في ايديكم وأيدي اصحاب الاطراف فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه وإنما لكم مني هذا الاسم الذي تخطبون به على منابركم تسكنون به رعاياكم فان احببتم أن اعتزل، اعتزلت عن هذا المقدار أيضا وتركتكم والامر كله» (5) . فلجأ بختيار إلى تهديد الخليفة حتى اضطره إلى بيع ثيابه وانقاض داره، وأخذ منه أربعمائة الف درهم انفقها بختيار على مصالحه الخاصة، وكان لهذه الحادثة صدى سيئا لدى أهل العراق وحجاج خراسان .

وتعرض الخليفة الطائع الذي خلف اباه المطيع إلى الأهانة والاعتداء على حرمة الخلافة، إذ لم يكتف بهاء الدولة بمصادرة أمواله والاستيلاء على ذخائره فأرسل اليه يطلب الإذن في الحضور في خدمته ليجدد البيعة له، فاذن له و جلس في صدر الرواق متقلداً سيفه في التاسع عشر من شهر رمضان سنة 381 هـ فدخل بهاء الدولة مع جماعة من الديلم، وقبل الأرض وأجلس على كرسي، فتقدم اصحاب بهاء الدولة وجذبوا الخليفة عن سريره وهو يستغيث ويقول : «انا لله وانا اليه راجعون» ولا يلتفت اليه ، ثم حمل إلى دار بهاء الدولة، وساد الإضطراب في بغداد ونهبت دار الخلافة وأرغم الطائع الى خلع نفسه وبويع للقادر بالله .

ومن مظاهر استبداد البويهين بالسلطة مشاركتهم الخلفاء في شارات الخلافة، فصارت اسمائهم تذكر مع اسم الخليفة في الخطبة منذ عهد عضد الدولة البويهي، ولم يسبقهم إلى هذا أحد من الأمراء، فقد كان هذا التقليد من الأمور التي ينفرد بها الخلفاء دون الأمراء، ولم يقف الأمر إلى هذا الحد، بل إن عضد الدولة عمد الى حذف اسم الخليفة الطائع من الخطبة مدة شهرين حين تفاقم الخلاف بينهما .

كما نقش البويهيون اسماؤهم والقابهم على السكة والعملة جنبا إلى جنب مع اسم الخليفة، وكان أول من فعل ذلك منهم معز الدولة البويهي واخوته وعمدوا في بعض الأحيان إلى حذف لقب امير المؤمنين من السكة واكتفوا بذكر اسمه مجردا من اللقب، بينها حرصوا على ذكر اسمائهم والقابهم وكناهم ، واستطاع عضد الدولة حين ولي امور العراق أن يرغم الخليفة الطائع سنة 368 هـ على منحه حق ضرب الطبول امام داره ثلاث مرات، كما أجاز الخليفة القادر بالله للامير جلال الدولة أن تقرع له الطبول خمس مرات يوميا .

وحرص امراء بني بويه كذلك على مطالبة الخليفة بالخلع والالقاب، ولم يكتف بعضهم بلقب واحد، كما فعل عضد الدولة حين طلب من الطائع لأمر الله أن يزيد في لقبه لقبا جديدا هو(تاج الملة) ، فكان أول من تلقب بلقبين من الأمراء . وحذا حذوه بقية الأمراء البويهين، ففي سنة 373 هـ انعم الخليفة الطائع على الأمير صمصام الدولة بلقب(شمس الملة) اضافة إلى لقبه الأول، كما لقب شرف الدولة بن عضد الدولة بلقب (شاهنشاه) ، ولقب الخليفة القادر بالله الأمير بهاء الدولة البويهي بلقب غياث الأمة على أن خلفاء بني العباس في هذا العصر ظلوا يحتفظون بسلطتهم الدينية التي حرصوا على التمسك بها ليقاوموا بذلك استبداد البويهيين، فاحتفظ الخليفة بحقه في تعيين القضاة وأئمة المساجد وامراء الحج والمظالم .

الأوضاع السياسية وا لاقتصادية في العراق خلال فترة التسلط البويهي

لم ينجح الامراء البويهيون في فرض سيطرتهم الكاملة على العراق، فقد تمكن الحمدانيون من ايقاف تقدمهم نحو الشمال على الرغم من انشغالهم انذاك في مواجهة البيزنطيين من جهة والامارات المنافسة لهم في اقليم الجزيرة الفراتية من جهة اخرى غير أن عضد الدولة استطاع فيما بعد الاستيلاء على الموصل، وانحصر نفوذ الحمدانيين في حلب وما جاورها . الا ان حكم البويهيين لم يستتب في شمالي العراق ، حيث فرض المرداسيون نفوذهم على حلب، كما خضعت الموصل واعمالها لحكم بني عقيل سنة 379هـ ، أما في الجنوب فقد سيطر بنو مزيد من قاعدتهم في الحلة على المنطقة الوسطى، في حين تمكن بنو اسد في الحويزة من فرض نفوذهم على جنوبي العراق واقليم الأحواز .

وكانت بغداد في حوزة معز الدولة احمد بن بوية، وقد حاول عضد الدولة توحيد الامارة حين تمكن من الاستيلاء على أملاك اخويه، غير أن وفاته قد فتحت الباب أما الصراع الذي تفجر بين ابنائه من بعده، حتى استقرت الأمور بيد بهاء الدولة، كما استطاع الغزنويون ان يقتطعوا اقليم الري. وكان أمراء الأسرة البويهية قد اتخذوا شيراز عاصمة لهم واتخذوا وزراء لهم ينظرون في شؤون الادارة المالية، كما احتفظ الخليفة بوزير وديوان خاصين به. إلا أن ديوان وزارة الامير البويهي اصبح يقوم بالعمل الذي يقوم به ديوان وزارة الخلافة من قبل، وكان ديوان الوزارة يشرف على عدد من الدواوين التابعة له. أما المدن الرئيسية كالكوفة وواسط و البصرة فقد احتفظت بنظمها الادارية القديمة. ويلاحظ أن بعض امراء البويهيين قد اقاموا في واسط والبصرة التي اصبحت تحتل اهمية كبيرة بعد بغداد وتمتعت باستقلال ذاتي، مما جعل النفوذ البويهي مقتصرا على بغداد وواسط .

تعرض خلفاء هذا العصر الى القتل والتعذيب والاعتداء على حرمة الخلافة وجردوا من سلطاتهم ومنعوا من ممارسة دورهم في الحكم ، بالاضافة إلى التخريب والدمار الذين لحقا بغداد وواسط والبصرة وغيرها جراء الحرب التي اندلعت بين افراد الأسرة البويهية من جهة وبينهم وبين الأتراك من جهة أخرى، فكان كل منهم يمارس دوره في النهب الحضاري والاقتصادي ويعمل على طمس المقومات الشخصية العربية وتخريب الثقافة القومية .

اما من الناحية الاقتصادية. فقد ازدادت الأوضاع سوءاً بمجيئ البويهيين على الرغم من المحاولات التي بذلها بعض امرائهم لتحسين الأحوال من اصلاح الترع والسدود، كما قام عضد الدولة بإعمار بعض مناطق بغداد وعمل على انعاش الصناعة والتجارة في البلاد، غير أن هذه المحاولات لم تأت بفائدة كبيرة بسبب تكرر الفيضانات وانتشار الأوبئة، وارتفاع ضريبة الخراج التي فرضها البويهيون على الأراضي الزراعية، مما أدى إلى تدهور الزراعة الى الحد الذي كانت فيه بغداد تعتمد في ميرتها على المناطق الجنوبية والشمالية التي كانت تحت سيطرة عناصر منافسة للبويهيين. وقد شهدت التجارة هي الأخرى تدهورا ملحوظا بسبب كثرة الضرائب وفقدان الأمن والاستقرار في تلك الحقبة من تاريخ الخلافة العباسية .

وفي قبال هذا التدهور السياسي والاضطراب الامني فقد ازدهرت الحياة الفكرية والادبية في هذا العصر بعد ان وفر الامراء البويهيون الحرية لأصحاب المذاهب والفرق المختلفة في طرح افكارهم فبرزوا العلماء الكبار من الشيعة كالشيخ المفيد والشريف المرتضى والشيخ الطوسي وعلماء اخرين من اهل السنة كالمعتزلة والاشاعرة .